غازي بيشة
(١٩٤٥-٢٠٢٢)
في عيون أصدقائه

محمد النجار وزيدان كفافي وأحمد لاش وأديب أبوشميس

الإنسان والعالم والمدير والصديق

ولد غازي عام ١٩٤٥ لعائلة شركسية كانت تسكن في شارع الملك طلال في وسط البلد كانت قد هاجرت إلى الأردن في ثمانيات القرن التاسع عشر وكان أبوه ضابطًا في الجيش الأردني.

درس المرحلتين الابتدائية والإعدادية في الكلية العلمية الإسلامية ثم أكمل تعليمه الثانوي في كلية الحسين لينتقل بعدها لإكمال دراسته في الجامعة الأردنية في الأعوام ١٩٦٣-١٩٦٧.

غادر غازي إلى الولايات المتحدة عام ١٩٦٩ حيث حصل على شهادة الماجستير من جامعة آن هاربر ميتشغان، وعاد بعدها للعمل في دائرة الآثار.

غادر غازي مرة أخرى إلى الولايات المتحدة إلى نفس الجامعة ليحصل منها على شهادة الدكتوراة في الآثار الإسلامية عام ١٩٧٩.

كانت بداية معرفتي بغازي عام ١٩٨٢ عندما عُيِّنْتُ بوظيفة «أمين متحف» في متحف الآثار الأردني في جبل القلعة. كان غازي يتردد على المتحف كثيرًا إما لدراسة مكتشفات أثرية كان قد عثر عليها في قصر الحلابات أو لتسليم مكتشفات أثرية تم الكشف عنها حديثًا في أماكن أخرى.

كان غازي مثال الآثاري النموذجي فهو طويل القامة، أعزب، يتحدث الانجليزية بطلاقة والأهم من ذلك كان قارئًا ممتازًا ومتابعًا لكل ما يستجد في حقل الآثار.

كان كل ما كان يريده غازي ليصبح الإنسان الأكثر سعادة على وجه الأرض هو موقع جيد (الحلابات ومشاش والشوبك والعقبة وطبقة فحل ومادبا وقصير عمرة فيما بعد وغيرها الكثير)، وخيمة وسيارة تويوتا لاند كروزر قديمة.

باختصار كان غازي النموذج الذي تطلعنا إليه جميعًا وحاولنا تقليده، باستثناء طول القامة والزواج من حيث كنا قد تجاوزنا العمر الذي قد تصبح فيه قاماتنا أطول أو نستطيع فيه التخلي عن الزوجات.

عام ١٩٨٦ ترأس غازي الفريق الأثري الأردني الذي قام بأعمال التنقيبات الأثرية في منطقة «سار» في البحرين والذي كنت أنا عضوًا فيه، وعندما أصبح غازي مديرًا عامًّا للآثار عام ١٩٨٨ نقلني من متحف القلعة الى الدائرة الرئيسية في جبل عمان حيث عُيِّنْتُ

رئيس قسم التنقيبات والمسوحات الأثرية الذي كان هو نفسه قد ترأسه بين عامي ١٩٨٢ و١٩٨٦.

تقاعد غازي عام ١٩٩٢ ليعود بعد ثلاث سنوات قضاها مديرًا لمشروع مادبا الأثري ليشغل وظيفة مدير عام الآثار للمرة الثانية.

أستطيع القول الآن بأن غازي كان زاهدًا في الوظائف الإدارية وجذبه الميدان والمكتبة بقوة أكثر بكثير من قاعات التدريس أو المكاتب الفارهة، ولزهده هذا انهالت عليه الوظائف فمن مفتش آثار إلى رئيس قسم التنقيبات إلى مدير المشاريع ومساعد مدير عام دائرة الآثار الفني. لم يكن غازي في أي يوم من الأيام طامحًا إلى أي عمل إداري وكان قبوله بالوظائف الإدارية على مضض نتيجة للضغوط الهائلة التي مورست عليه، ولكن ومن دافع الالتزام والواجب كان غازي ينجح في كل مكان يوضع فيه.

قال لي غازي في آخر أيامه في دائرة الآثار أنه يفضل أن يكون مفتش آثار أم قيس على أن يكون مديرًا عامًّا ولكن هذا لم يتحقق له فبعد تقاعده الثاني من وظيفة المدير العام عام ١٩٩٩ عُيِّنَ مشرفًا على مشروع متحف الأردن.

أنجز غازي خلال مسيرته العلمية عدة أبحاث ومقالات ومراجعات علمية نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر مشاركاته المميزة في سلسلة مسارات عرض «متحف بلا حدود» عن الفن الإسلامي في منطقة البحر المتوسط؛ والكتاب التوثيقي الشامل عن قصير عمرة بالتعاون مع المعهد الفرنسي للآثار في عمان.

اعتبرت آراؤه حجة في الآثار الإسلامية حيث لاقى غازي اعترافًا واحترامًا كبيرًا لدى الآثاريين على المستويين المحلي والدولي. وقد منحت الدولة الفرنسية غازي وسام الفارس لإسهاماته الكبيرة في الحفاظ على التراث الآثاري الأردني بالتعاون مع المؤسسات الدولية المختصة.

كان غازي الإنسان محبًّا للرياضة وممارسًا لها لا سيما كرة السلة وكرة القدم وكان مشجعًا مثابرًا للكرة الإنجليزية. كما كان يعرف جميع من في الدائرة أنهم لا يستطيعون الاتصال بغازي أو زيارته أثناء مباريات كأس العالم، وكان بعض سائقي الدائرة يتابعون بقصد مباريات الأندية الإنجليزية والمباريات المحلية ليقوموا بمناقشة تفاصيل كل مباراة معه وكان النقاش يحتدم ليصبح نقاشًا بين مشجعين متحمسين ومتعصبين أحيانًا تختفي خلاله الفروقات الوظيفية.

كان طول قامته وشعره الأشيب ونظاراته الطبية وملامح الصلابة لديه، يعطيه مظهرًا مهيبًا وحتى خادعًا، لمن لم يعرفه في بعض الأحيان، فقد كان يترك عند من كان يقابله للمرة الأولى بأن الشخص الواقف أمامه هو شخص جِدِّيٌّ جدًّا ورزين ولا يفكر إلا بالبحث العلمي وبالآثار فقط. ولكن، عند أصدقائه كان يتمتع غازي (أبو جميل) بحس دعابة عال لا يتمتع به الكثيرون ويرى جانبًا فكاهيًّا في أكثر الأشياء جِدِّيَّةً في الحياة.

محمد النجار

الدكتور غازي بيشه بيشة يعيش معنا

زرت يومًا ما مكتبة جامعة اليرموك بصحبة مجموعة من طلاب الدراسات العليا، وبدأنا جميعًا نتصفح الكتب المصفوفة بترتيب فوق الأرفف، فالتَفَتُّ إلى الطلبة وقلت لهم الآتي: «هناك أناس يموتون ويموتون، وهناك أناس يموتون ولا يموتون». نظر إلي الطلبة باستغراب، وسألوا «كيف لا يموتون؟»، قلت أفسّرُ لكم: مطبوعٌ على كل كعب كتاب وعنوان كل بحث منشور اسم مؤلفه، يبقى هذا الاسم موجود على الرّف مدى الحياة، أي ما دام الكتاب موجودًا، إذن «اسم المؤلف لا يموت علمًا أن جسده يفنى».

والدكتور غازي بيشة العالم والباحث مات جسده، لكن علمه ما زال حيًا، ويعيش معنا بعلمه.

عرفت غازي بيشة قبل أن يعرفني، كان هذا في أوائل ستينيات القرن الماضي حين كان طالبًا في كلية الحسين / جبل الحسين - عمّان، وكان لاعبًا لكرة السلة متألقًا في فريق الكلية. كنت حينها ، ولا زلت، مغرمًا بالرياضة ولا أفارق ملاعب كلية الحسين، كان غازي متميزًا بين اللاعبين الآخرين، فكنت معجبًا به.

شاءت الظروف أن أتخصص بدراسة الآثار في الجامعة الأردنية، وكان غازي قد سبقني إلى ذلك. جمعتنا الآثار، كما جمعنا حب الرياضة. و بعد تخرجي من الجامعة الأردنية عملت لمدة عام (١٩٧٢) موظفًا في دائرة الآثار العامة، وكان غازي أيضًا قد سبقني إلى ذلك. بعدها خرج غازي في بعثة إلى أمريكا عاد بعدها حاملًا درجة الدكتوراة في الآثار الإسلامية، والتحق بدائرة الآثار العامة. وبقي ملتزمًا بوظيفته في الدائرة على الرغم من عرض الجامعات الأردنية عليه الالتحاق بها، لكنه لم يفعل، وإن كان قد التحق لمدة عام على حساب كرسي سمير شمّا بجامعة اليرموك.

تدرج غازي بالمناصب بدائرة الآثار العامة الأردنية حتى عيّن مديرًا عامًا لها. وما زلت أذكر مدى تعاونه وحرصه على الآثار الأردنية، ومدى معرفته الشاملة بها وبالآثار الإسلامية.

كان يدعم جميع الحفريات لا سيما الإنقاذية منها، ولا زلت أذكر دعمه أجور العمال في حفرية عين غزال.

كان غازي رجل العلم، وعالم الآثار، لكنه لم يستطع أن يخفي عشقة للرياضة، إذ كان يتصل بي ليلًا ويسألني رأيي بالمباريات، خاصة الدوري الانجليزي.

بفقده فقد الأردن باحثًا أثريًا ثبتًا، ومرجعًا في الآثار الإسلامية خاصة.

رحم الله الدكتور غازي بيشة وحشره مع الصديقين والشهداء، بفقده فقد الأردن عالمًا ورجلًا مخلصًا، وفقدت أنا أخًا وصديقًا.

أ. د. زيدان عبد الكافي كفافي
عمّان في ١٣/ ١٠/ ٢٠٢٢م

في ذكرى رحيل أستاذي غازي بيشة

كان ذلك في أحد أيام سنة ١٩٩٧ عندما كنت أصعد أدراج دائرة الآثار العامة لمقابلة مديرها العام الدكتور غازي بيشة، ممنيًا نفسي بسهولة الحصول على وظيفة كوني أشترك معه في أصولنا الشركسية، متسلحًا بشهادتي الجامعية بتخصص الآثار وحاملًا في جيبي رسالة توصية من أحد أصدقائه المقربين، إلا أنه قد غاب عن ذهني أن الدكتور غازي بيشة لا يتعامل مع الناس بناءً على أصلهم أو دينهم أو لونهم أو درجة قرابته منهم. فموازنة الدائرة محدودة ولا يوجد مجال للتعيين، وإن وجد فهو للأقدم طلبًا وليس للأكثر قرابة.

هبطت أدراج الدائرة محملًا بخيبة الأمل في الحصول على وظيفة دائمة ومريحة في مكاتب الدائرة، لتبدأ رحلتي متنقلًا في العمل بين المشاريع الأثرية المؤقتة من موقع أثري إلى آخر ومن محافظة إلى أخرى، لتمضي أكثر من عشر سنوات من تاريخ ذلك اللقاء لأجتمع مع الدكتور غازي بيشة وهذه المرة لمناقشة أحد المشاريع الأثرية بحضور المرحوم الدكتور فواز الخريشة بعدما استقر بي العمل كموظف في دائرة الآثار محملًا بخبرة عشرات المشاريع الأثرية التي عملت بها.

نعم، جلست أمام ذلك العالم الذي لم يزده علمه إلا تواضعًا، أناقشه وأستفسر منه وأستمع لإجاباته العلمية على استفساراتي بأسلوبه الهادئ وصوته الرخيم. لم أدرِ أن سنوات عملي قد قادتني بلا شعور لينصب اهتمامي بالعمل في الفترات الإسلامية المبكرة وهو الذي خلق عاملًا مشتركًا بيني وبين الدكتور غازي بيشة، فكلما بدأت العمل في موقع من المواقع الإسلامية وجدت الدكتور غازي قد مهّد الطريق لي بما كتبه ونشره عن ذلك الموقع. توثقت أواصر العلاقة العلمية بيني وبين الدكتور غازي يومًا بعد يوم، كانت علاقة طالب بأستاذه وملهمه، كان بالنسبة لي كما هو الحال مع غيري، بمثابة المنارة والدليل والمرشد والناصح، لا يجامل في خطأ ولا يغدق الثناء والمديح إلا بقدر.

لا أذكر أنني قد كتبت بحثًا إلا وعرضته عليه قبل أن أنشره، فمهما كان موضوع البحث فهو يقرؤه بتمعن وتدقيق، ليضع ملاحظاته وتصحيحاته عليه. كان آخر ما راجعه لي هو كتابي عن الواقع الأثري والسياحي في البادية الشرقية والذي وافته المنية قبل أن أتمكن من إهدائه النسخة الخاصة به من ذلك الكتاب.

من المواقف التي لا أنساها هو ذلك اليوم الذي جمعني بالدكتور غازي في عزاء المرحوم فارس الحمود (مدير عام دائرة الآثار الأسبق) حيث طلب مني الذهاب إلى منزله لأنه يريد أن يعطيني شيأً ما، فذهبت في اليوم التالي ظانًا أنه سيعطيني كعادته بعض ما توفر له من كتب وأبحاث علمية، لأتفاجأ به وهو يقدم لي حقيبة العمل الميداني الخاصة به بما تحتويه من أدوات تنقيب استخدمها خلال عمله الطويل في البحث الأثري قائلًا لي: أنا أصبحت غير قادر على القيام بأعمال التنقيب فربما تستفيد منها أنت فهي الآن أكثر فائدة لك. كانت صدمتي وفرحتي أكبر من أن توصف، فتلك الهدية من أستاذي هي أكبر وسام تقدير حصلت عليه في حياتي العملية وهي أكبر من أي تقدير سأحصل عليه.

أستاذي غازي بيشة لقد كان لرحيلك وقع الصدمة على كل من عرفك فلقد كنت لنا إنسانًا وعالمًا وأخًا كبيرًا. شعور مؤلم جدًا عندما تصعب علي مسألة علمية فأهم بالإتصال بك لأسألك عنها ناسيًا أنك قد رحلت عن عالمنا، هو شعور باليتم الأكاديمي الذي يتركه رحيل الأستاذ والمرشد في نفس طالبه. أستاذي غازي بيشة أرجو أن أكون عند حسن ظنك بي وأن أكون ذلك الطالب الذي تأملت به خيرًا.

أسأل الله العظيم جلّت قدرته أن يشملك في رحمته ويسكنك فسيح جنّاته، فإن كنت قد رحلت عن هذا العالم بجسدك فأنت باقٍ مابقي علمك الذي سطرته بين دفات الكتب.

أحمـد لاش

المرحوم الدكتور غازي بيشة

رحيل رجل أكاديمي من الدرجة الأولى، متميز بالغزارة العلمية وخصوصًا الآثار الإسلامية. لم يظهر يومًا برداء المدير رغم اعتلائه هذا المنصب لأكثر من دورة.

كانت لي معه عدة لقاءات أذكر منها ما حدث أثناء أعمال التنقيب في المغطس، حيث كنت منتدبًا لقراءة الفخار المكتشف، جلسة مناقشة عن كثب في أحد الأيام مع مدير المشروع آنذاك بمرافقة وزير السياحة في حينه، لم تنقصه المعلومة الميدانية أبدًا، ناقش بحجة علمية محضة رغم موقعه كمدير عام، فلم تفته دقة التفاصيل وحنكة النقاش العلمي، بعيدًا عن الاستراتيجية السياحية التي تقضي تشاركه في الهدف المعلن للمشروع.

عهد إليّ بإدارة مشروع التنقيب الأثري في سد الوالة وسد الموجب وسد التنور، وما يترتب على ذلك من مسوحات وتنقيب في المناطق التي ستغمرها مياه السدود، وكان لابدَّ من تبادل الأفكار كل شهر من العمل الميداني الكثيف، فما كان منه الاّ أن صافحني وقال: «إنتو كل واحد بستلم مشروع برجع لي بلحية»، وأتبع ذلك إبتسامة خفيفة تعبر عن مداعبة بعتاب. لقد كان ذلك بحضور الدكتور فوزي زيادين أمده الله بالعافية.

أثناء زيارة جلالة الملكة نور الحسين إلى منطقة المغطس، كان لي وقفة مناقشة قرب النهر المقدس، وعندها انتهزت الفرصة وتقدمت للملكة برسالة مخطوطة، فما كان منه بعد إنتهاء الزيارة إلّا أن تقدم إليّ وقال: «يا أديب الموقف لا يستدعي ذلك، وعندها وجدتني غير موفق في ذلك». رحم الله الرجل المتسامح مع نفسه رغم قدرته الذهنية الحساسة.

أديب أبو شميس